

## عبد الله شمس الدين الشاعر الذي مدحه الأمراء

بقلم الشاعر محمد علي عبد العال<sup>(\*)</sup>

ولد الشاعر عبد الله شمس الدين في ١٧ / ١٠ / ١٩٢٣، حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بأروقة الأزهر الشريف. عمل كبيراً لمصححي مطبعة السكة الحديد، ثم مستشاراً للمجلس الأعلى للشبان المسلمين ومقرر اللجنة الثقافية بها، كما عين عضواً بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وعضواً بلجنة النصوص بالإذاعة.

نظم الشعر وعمره لم يتجاوز الحادية عشر، وأصدر ديوانه الأول "أصداء الحرية" عام ١٩٥٤، ثم ديوانه الثاني "وحي من النور" عام ١٩٥٩، وديوانه الثالث "الله أكبر" عام ١٩٦٨، أما ديوانه "الشفق الغارب" فتحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة.

حصل على وسام الفنون والآداب من الطبقة الأولى عام ١٩٥٦، وتوفي الشاعر الكبير في ١٣ مارس عام ١٩٧٧.

أصدر الكاتب عبد العليم المهدي كتاباً عنه بعنوان "عبد الله شمس الدين قيثارة التوحيد"، كما نال الطالب مصطفى عبد القادر فريد درجة الماجستير بامتياز عن دراسة تناولت شعر عبد الله شمس الدين، وكان عنوانها "عبد الله شمس الدين شاعراً".

(\*) رئيس رابطة الأدب الحديث.

عند تناول فلسفة عبد الله شمس الدين تجاه الحياة والوجود، فلا بد من طرح سؤال مهم: لماذا اختار ذلك الشاعر هذا الطريق في الفكر والسلوك الصوفي؟ هل هو العقل والفكر؟.

لعل خير ما يجيب عن هذا السؤال هو أبياته تلك من قصيدة "في رحبا الله" (١)

أنا كنت قبلك هائمًا متقلبًا بدجي السين  
ولكم خشيت من الضياع وكم خشيت من الجنون  
حتى دخلت حمى الإله عرفت سر الآمنين  
قهروا هوى الدنيا بما عرفوه من صدق اليقين  
ولأنه كان يعرف طبائع الناس لذا طلب من الله ألا يرفع عنهم  
الغطاء، وألا يكشفهم له؛ حتى يرى الشيطان فيهم كالملك، كذا قدم فكرته  
الفلسفية خلال نسق قصصي، مقدمًا ناصحًا يقول له ما هكذا الحياة.

كنت كالراضي وكالطفل الوديع  
خالي الذهن أغني وأعيش  
أنقش الأحلام في رمل الهجوع.  
ثم أغفو هائمًا فوق النقوش  
فأتى الناصح من خلف الستار  
يزعج الإحساس بالطليل المخيف  
أبيها الشاعر قد جاء النهار  
قم مع الناس وزاحم في الصفوف

(١) من ديوان "الله أكبر".

\* \* \*

يا إليه النور بارك لي الشعاع  
 فظلام الناس جبار الحلك  
 ودع الستر عليهم والقناع  
 لأرى الشيطان منهم كالمملك

وتلفتنا تيمة من تيمات الشاعر البارزة، وهي "البحر"، فنتسأل: ماذا يوحي البحر للشاعر؟ البداية والنهاية؟ الخوف اللامتناهي؟ الخشوع والرغبة؟ سيطر البحر على مشاعر الإنسان بقوته وجبروته، وعدم إتاحة الفرصة للتفكير في شيء سوى الحيرة اللامتناهيّة، مع سلب إرادة الإنسان في عمل شيء سوى الشعور بالضعف تجاه هذا الجبروت الموحى بالنشأة الأولى<sup>(١)</sup>:

تاه فكري وشردت نظرائي وطوتني الغيوب في سيجاني  
 أيها البحر، فيك صيغ كياني موجة حيرى مثل ذي الموجات  
 مالح أنت. أفرغتك الليالي من عيون الأحزان والحسرات  
 تلك روحي جرت مياه فنون فجرتها سفائن الحادثات  
 ثم دعني للمهمات المعاني ساجحات بخاطري لاعبات  
 أحرس الحسن عندها وأغني بين حلم الهوى ووهم الحياة  
 لقد عرف عبد الله شمس الدين سر الحياة، ورأى أنه لا قيمة لشيء  
 سوى حب الذات العليا، فذاب فيها:

لقد صحبت الحياة طفلاً  
 وقد خبرت الحياة كهلاً

(١) من قصيدة "البحر والشاعر" من ديوان "الله أكبر" ص ٢٠٧.

وقد بلوت الأنام طرًا  
 من كل لون تخذت خلا  
 فما عرفت الحياة إلا  
 سراب وهم يمر ظلا  
 والكل فان. وأنت باق  
 وفيك حي شدا وصلي

وقد سرت الروعة في معظم شعر عبد الله شمس الدين؛ فعندما تفرغ من قراءته تجد النفس حيرى في تحديد أي قصائده أعظم؛ فلا تملك إلا أن تنتقل معه من فكرة إلى أخرى متشحة بألفاظه الموحية الثرة، فهو قادر على رسم عوالم شتى غير منظورة في لفظ واحد، وهذا هو أسلوب الشاعر الحق الذي يستطيع في غير معاناة أن يثري اللفظ بشحنة قوية تلج الحياة في سرها الكوني، وفي الوقت نفسه هي لفظة سهلة عذبة غير متكلفة، جال هذا بخاطري وأنا أقرأ له قصيدة "صلوات" <sup>(١)</sup>، فهذه القصيدة كون وحياء وصوفية، وشعر وتجربة شاعر وعوالم مرئية وأخرى دون ذلك:

وقلت أجاري الناس طيشًا وجفوة      فأصبحت كالضليل أطوى الليالي  
 ويفزع ديني في حناياي صارخًا      وتخطر يا ربي فيغضي حيايا  
 وقد كنت في قوم هأوت نفوسهم      ولا شيء غير الجاه يهتز عاليا  
 ويا ويل من أخي ويا ويل من صفا      ويا ويل من لم يحي فيهم مداجيا  
 تعوذت منهم يا إلهي .. جميعهم      بوجهك فارحني وكن لي كافيا  
 وصن ماء وجهي. لا تدعني أريقه      لكل لئيم لا يرى السؤل غاليا

(١) ديوان "الله أكبر" ص ٢٤٨.

عرفت يا ربي. يبحث ونظرة فجيئتك صبا طاهر الحب خاليا  
وهذي صلاتي في فؤادي أقيمها مواكب تقديس وقد همت شاديا  
عجبت لهذا العصر يختال جيله غرورا. وما كان الغرور تساميا  
أكل من استهوته في الوهم نزوة ورام ظهورا منكرا وتعاليا  
يروح ويغدو سافر الوجه ملحدا عنيدا على مكر ليثما مرانيا  
أولئك أطفال الخيال تسلقوا جبال هواهم. فاستحالت مهاويا  
وما ضركم لو أن للخير كنتموا دعاة سلام ينشر الحب راعيا  
ويجمع شمل الناس شعبا موحدا كريما على صدق الإخاء مصافيا

أما في قصيدته "صلوات الخليل" <sup>(١)</sup> فيتجاوب صوت الشاعر ويمتزج مع صوت صاحب الوجه الأصلي وهو الخليل عليه السلام. وهذه القصيدة تسلمنا إلى إعادة النظر إلى حقيقة نقدية طاول الوقوف أمامها، ووصلت إلى ذرا اليقين، وهي قضية "شعر المناسبات": مفهومه، وما وجه إليه من نقض وسلب. فالشاعر عندما يمتزج بموضوع وجدانيا، ويتمثل تجربته تمثلا تاما يكتب شعرا لا يصح أن يطلق عليه "شعر مناسبات". ومثل الوصف لا يطلق إلا على ما نظم من شعر في غرض يقصده صاحبه دون تمثّل له أو معايشة تجربته، أيّا موضوعه مناسبة أو تجربة حب أو الوطن أو أية تجربة ذاتية. وسير بعض النقاد وراء هذا إطلاق أحكام عامة موجة أصابع الاتهام - تقليد أعمى وخطأ فادح؛ لأن التجربة الشعرية في الحب - وهو أسمى أنواع المشاعر - قد تتدرج تحت هذا المسمى، وقد تسمو إلى ذرا الشعر الرفيع، الأمر توقف على تمثّل الشاعر للتجربة وتعبيره عنها.

(١) من ديوان "الله أكبر" ص ٢٦١.

والصحيح أن كل قصيدة تكتب لغرض أو مناسبة بدون تجربة شعرية وانفعال تعد نظمًا وتكلفًا لا يستوفي مراحل التجربة الشعرية. وعند النظر إلى تجربة الشاعر عبد الله شمس الدين نجده لاقى موضوعًا مناسبًا لعوامل تفجير الطاقة الشعرية والشعرية الكامنة فيه بالنسبة لصدق الإيمان ومعاناة؛ فاختلط صوته مع صوت أبيه إبراهيم الخليل؛ حتى لا تستطيع أن تميز الصوتين، وما يعبران عنه من تجربة خاصة بالشاعر أو بال خليل عليه السلام:

إني أرى الله في حسي وعاطفتي      وفي فؤادي وفي روحي وتكويني  
يا من أحس به في كل كائنة      وقد تعاليت عن حدس وتخميني  
خذي إليك فقد كادت تضللي      هذي التماثيل يا ربي وتغويني  
أما قصيدة "نظي السلام" <sup>(١)</sup> فهي مثال لسكينة النفس ورضاها مع الله والناس والكون والمحبة الإنسانية، ومنها تعرف سعة أفق الشاعر عبد الله شمس الدين، وشدة تغلغل الفكر الديني في نسيج نظراته للحياة:

يا رب هل أنا شاعر وحدي      فأفني رحمة. وهم القساة الظلم  
أنا عازف الأحلام إن هم أحققوا      وأنا السراج إذا دجوا. وتجهموا  
قلبي كما شاء الإخاء محبة      للناسي. لا يقسو ولا يترم  
وخواطري نور لهم وهداية      وعواظفي نسيم يرف عليهمو  
أواه لو كان الأنام جميعهم      شعراء نظرب للحياة ونبسم  
فالشعر موسيقى السماء ووحياها      وشداته رسل السلام الرحم  
لولاهم انطفأ الجمال وماؤها      للكون إشراق به يترنم

(١) من ديوان "الله أكبر" ص ٢٦٨.

والشاعر عبد الله كان مثالا للشاعر المتكامل الموهبة والملكات، فهو الناقد المنصف، والشاعر الجاد الذي كتب في فنون الشعر المتنوعة، فضلا عن كونه الإنسان الذي لم يُخَفِ مشاعره كما يفعل غيره من الشعراء غير الصادقين مع أنفسهم، وعندما تقرأ قصيدته "يا رب طال صراعي" (١) نجد فيها التعبير الصادق عن أحاسيسه المتصارعة، فهو رغم إيمانه العميق الصادق لا يخلو من النوازع البشرية التي لم ينكرها على نفسه:

ما لي أخاف المنايا رغم توحيدي      ورغم حيي لمولانا وتغريدي  
الكون في محيطات وأودية      والشمس والبدر في آفاقي السود  
على صعيد سمائي شمس معرفتي      حينما تضيء فتطوى ظلمة اليبس  
وحين تغرب خلف الأفق يملأني      ليل من التيه في خوف وتشريد  
وحين تعوى رياح الشك في خلدي      تجتاحني ظلمة تموى بتوحيدي  
يا رب، طال صراعي ما هدأت به      وفي يمينك يا ربي مقاليدي  
ونحن في هذه القصيدة نقف أمام عبد الله شمس الدين الشاعر الصوفي الأرضي في وقت واحد؛ "الكون في محيطات" لمحة صوفية، و"طال صراعي" لمحة أرضية، يعرضهما الشاعر بلا تناقض، بل بصراحة مع النفس واضحة.

"قليل لبعضهم : لم لا تقول الشعر؟ قال: كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب؟!"، تلك بعض من دوافع الشعر، وقد يكون بين من يتناولهم الشاعر بشعره ملكاً أو أميراً، هذا هو الشائع، ولكن النادر في الشعرية العربية أن يمدح ملكٌ شاعرًا، وهذا النادر انفرد به الشاعر عبد الله شمس

(١) من ديوان "الله أكبر" ص ٢٧٦.

الدين؛ فقد مدحه حاكم الشارقة الأمير صقر بن سلطان القاسمي في قصيدته بعنوان "يا شاعر الله أكبر".

وهذا الموقف صادر من أمير يعد من كبار الشعراء المجاهدين بمالهم وفكرهم وحياتهم في العصر الحاضر، وله مجموعة من الدواوين . يقول الأمير في مدح الشاعر عبد الله شمس الدين:

يا شاعر الله أكبر سموت لحناً ومخبر  
خلدت فيه كفاحاً ما زال يعلو ويظهر  
أرهبت كل عميل على الحمى كان يؤجر  
ما ردد اللحن يوماً إلا آثار ودمر  
هذا النشيد حسام بالحق ما زال يشهر  
قد صار رمز انتصار لكل شعب تحرر  
للتائرين شعاع بقوة الله يهدر  
إن رددته لهامة على عدو تقهقر  
أحسانه صلوات لها على الحق منبر

بموهبة لا بشيء آخر زاحم عبد الله شمس الدين كبار الشعراء، تلك الموهبة التي فرضت لنفسها موقعاً في ذاكرة الشعر المعاصر، وجعلت معاصريه يتناولون شعره، كما تفرض الحقيقة والتاريخ، باعتباره إبداعاً جديراً بالنظر والدراسة، ولعل من الذين استوقفهم شعر عبد الله شمس الدين الشاعر عزيز أباطة الذي يقول في مقدمة ديوان "أصداء الحرية" ضمن دراسة تحليلية عن الشاعر عبد الله شمس الدين: "والشعر الذي بين يدي للأستاذ عبد الله شمس الدين يحدد مكانه بين هذه المدارس في سهولة ويسر - فهو يحرص على أساليبه كما يحرص على معانيه، ويحتفي بالصياغة،



ويتأنق في الأداء، يساعده في ذلك ذوق عربي صميم، صقلته قراءة واعية مستوعبة لذخائر الأدب العربي، في أزهى عصوره المختلفة، حتى ذلك العصر الذي نعيش فيه، فأنت تستطيع أن تنسبه إلى المدرسة "الشوقية" من غير عنت أو تقحم.. فصفاء الخيال، وجمال التعبير، ونقاوة الأسلوب، ودقة المعنى، وحرصه على الكريم من تقاليد الشعر - كل هذه عُييت بها المدرسة الشوقية أيما عناية.

ولم يفرط الشاعر عبد الله شمس الدين في أن يأخذ بنصيب موفور من كل هذه الأسباب الفنية التي تجلو الصور الشعرية في أزهى إطار.

هذا هو الشاعر عبد الله شمس الدين في حربه وحبه، إن صح هذا التعبير: ثائر حين تتوارد على خاطره جروح وطنه وجروح أخوته في العروبة، ثائراً أيضاً حين تتحرك في أعماقه نوازع العاطفة، ثائر حين تتأثر فيه جمرات الحب.

والأمل معقود عليه، وعلى صحبه من الشعراء المرموقين الذين يمكنهم أن يحفظوا لمصر زعامتها في الشعر العربي المعاصر على مدى الأجيال إن شاء الله".

فبعد هذا البيان الذي حدد من خلاله الشاعر عزيز أباطة اتجاه عبد الله شمس الدين، وموقعه في الشعر العربي المعاصر بين اتجاهات الشعر المختلفة في عصره - نجد الأمر واضحاً.

فالمدرسة الأولى لونها التيارات الفكرية الفلسفية التي تخاطب العقل، وتتنبق عنه دائماً، ثم لا تلم النفس ولا تحفل بالوجدان إلا في نطاق مرسوم لها، تفرض مواهبها في جمالاته بحیطة وحذر، وقد تزعم هذه المدرسة العقاد وعبد الرحمن شكري.

وبرجت المدرسة الثانية على سنن تعاون الفكر والعاطفة، وتفاعل الوجدان والعقل، في رسم الصورة الشعرية وإبرازها في إطار موسى من لمع النفس، وومضات التفكير، وقد تزعم هذه المدرسة مطران وناجي وأبو شادي.

أما المدرسة الثالثة التي ينتمي إليها شاعرنا عبد الله شمس الدين فقد كان على قمتها أمير الشعر العربي أحمد شوقي.

ولعل في هذا الإهداء الذي صدر به الشاعر عبد الله شمس الدين ديوانه "أصداء الحرية" ما يدل على أنه كان شاعر البسطاء من الشعب؛ يحس بالأمهم وينتمي إليهم، وهو في هذا دون فئة من الشعراء سارت في دهاليز الرمز، والتعبير - كذا ادعوا - عن مشاكل المجتمع بشعر لا يمت إليه بصلة. فالشاعر المتمكن يستطيع أن يعبر عن مشاكل مجتمعه بلغة يفهمها أفراد ذلك المجتمع. يقول عبد الله شمس الدين في إهدائه:

- إلى أخوتي الكادحين في بقاع الأرض، الذين خرجوا مثلي إلى الحياة بغير جاه ولا سند.
- إلى كل مناضل في كل مكان في سبيل الحرية، والسلام.
- إلى أخوتي الذين لا يبيتون على حقد ولا ضغينة، وقد أحسوا بالجمال ففجر الرحمة في قلوبهم منطقاً لفنونهم.

ودفاع عبد الله شمس الدين عن البسطاء من الشعب ليس قاصراً على شعبه فقط، بل شاملاً أبناء العروبة؛ فهو يعد قضية الحرية جزءاً من نفسه ومن فكره، تشغل كل عمل كتبه بطريقة أو بأخرى، وكانت وتره الحساس الذي يعزف عليه في كل حين، ولعل أول ديوان له - وهو "أصداء الحرية" - خير دليل على ذلك.

يقول في قصيدة "جراح الشرق" <sup>(١)</sup>:

على الجراح التقينا يا بني عمي	نشكو من القيد أو نشكو من الظلم
وفي الرغام شربناها معتقة	من كرامة الذل أو من كرامة الضيم
ثمشي تطوحنا الأيام عاتبة	وكل حس عليه لعنة همي
وفي الحاجر أشجان مؤرقة	تستقطر الدمع بين اللحم والعظم
وفي الصدور جراح مدها زمن	من الصراع مرير صارخ الجرم
وأصبح الشرق أغلالا ومقصلة	للتائرين على الطغيان والظلم
وفي كل قطر بأرض الشرق لست ترى	غير التكاثر في الأشداق واللجم
من هم لم بحمد العقبي ومن صبروا	لم يحمدوها وعاشوا العمر بالرغم
ران الحديد على الأيدي وما انطفأت	بين القلوب متى تفتت بالوهم

(١) ديوان "أصداء الحرية"، ص ٤٤

